

# التوسع البرتغالي في المغرب



## د. محمد مزيان

أستاذ التاريخ المعاصر  
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية  
ابن طفيل (القنيطرة) - المملكة المغربية



## بيانات الكتاب

صدر الترجمة العربية لكتاب «التوسع البرتغالي بالمغرب»، مطلع سنة ٢٠٢٠، لمؤلفه المؤرخ البرتغالي دافيد لوبش، بترجمة رفيعة للأستاذ عثمان المنصوري، وذلك فيما مجموعه ١٨٤ من الصفحات ذات الحجم المتوسط.



10.21608/KAN.2022.273493

## معرف الوثيقة الرقمي:

## كلمات مفتاحية:

الجيوئس البرتغالية؛ معركة القصر الكبير؛ الحماية الفرنسية؛ الإمبراطورية البرتغالية؛ تاريخ المغرب الحديث

## مقدمة

يندرج الكتاب الذي نقدم موضوع القراءة ضمن الكتابات التاريخية المعاصرة عن السياسة الاستعمارية للبرتغال بالمغرب. إذ يخوض في موضوع يتقاطع فيه تاريخ التوسع الاستعماري بالمغرب مع التاريخ العسكري، وتأسيس مراكز برتغالية وكيفية تدبيرها والآليات التي اعتمدها لتحقيق استغلالها الاستعماري وبسط سيطرتها على المجال المغربي.

ظهر الكتاب في طبعته الأولى باللغة البرتغالية سنة ١٩٣٧ ضمن عمل تأريخي للمسار الكولونيالي للبرتغال في مجلدين، ثم طبع هذا الفصل الخاص بموضوع الدراسة في طبعة مستقلة سنة ١٩٨٩ تحت إشراف اللجنة الوطنية لتخليد الاكتشافات البرتغالية. وترجم للعربية من طرف الأستاذ عثمان المنصوري سنة ٢٠٢٠، والواقع أن ترجمة هذا العمل منحت حياة جديدة وسلطت الضوء على أفكاره ومواقفه وقربته من عموم القراء. يتضح من خلال قراءة النسخة العربية

سلاسة وغنى اللغة الموظفة في هذه الترجمة، ويبرز ذلك من خلال احتفاظ الترجمة بالنطق الصوتي لأسماء الأعلام والأماكن كما وردت في صيغتها الأصلية. ثم اختيار الكلمات الواضحة الدلالات التي تبرز حنكة المترجم وتمكنه من ناصية اللغة وحرصه على تقديم عمل راقٍ أكاديمياً ومعرفياً.

## أولاً: هندسة وأهمية الكتاب

جاء العمل في طبعة من الحجم المتوسط، تجاوز عدد صفحاته عتبة ١٨٤ صفحة، تتوزع على سبعة فصول، مسبوقة بمقدمة وضعها المترجم الأستاذ عثمان المنصوري ويمكن اعتبار الفصل السابع خاتمة الكتاب زيادة على بملاحق ولائحة بيبولوجرافية بأهم إصدارات المؤلف.

تناول المترجم في تقديمه دواعي الترجمة وأبرز أهمية الكتاب ضمن الاستوغرافية البرتغالية ومكانة المؤلف دافيد لوبش بين المؤرخين حين جمع بين البحث التاريخي وتدریس اللغتين العربية والفرنسية

(٣) مرحلة الانهيار وتتمثل في فقدان أو التخلي عن بعض الأماكن من ١٥٤١م إلى ١٥٥٠م.  
(٤) مرحلة الحياة الغامضة للأماكن المحفوظ بها من ١٥٥٠م إلى ١٧٦٩م.

### (١) مرحلة الغزو أو التوسع

حكم خلال هذه المرحلة خمسة ملوك برتغاليين وهم جواو الأول، دوارتي، أفونس الخامس، جواو الثاني، ومانويل الأول. عمل هؤلاء على غزو السواحل المغربية والسيطرة على بعض الثغور الساحلية. حيث ظهرت لديهم رغبة كبيرة لتحقيق هذا المشروع الحلم، وأضافوا عليه طابعا دينيا لكسب مشروعية الغزو لهذا سعوا إلى الحصول على مباركة الكنيسة وكسب المزيد من التأييد الأوروبي بعد انقطاع السبل أمامهم للتوسع شرقاً على حساب مملكة قشتالة التي وقفت حاجزا أمام طموحاتهم لتوسيع مساحة بلادهم الضيقة. مما حتم عليهم البحث عن فضاءات أخرى لتحقيق هذا الهدف، فكان المغرب الوجهة الأقرب واستغلال انشغال قشتالة بصراعها الطويل مع مملكة غرناطة الإسلامية في الجنوب. أعد الملك جواو الأول لهذا المشروع مسبقا بإحداث مراكز التدريب والإعداد خاصة في بورطو ولشبونة، وأسند لأبنائه إدارة هذه المراكز. ثم كانت الوجهة هي السواحل الشمالية للمغرب بدءاً من سبتة، لعدة عوامل نظراً لموقعها الحيوي الذي يمكن من السيطرة على الطريق التجارية البحرية المارة عبر مضيق جبل طارق وقطع كذلك الإمدادات أمام مملكة غرناطة والتضييق عليها، وكبح جماح نشاط القراصنة المسلمين بالجانب الغربي لحوض البحر الأبيض المتوسط.

انطلقت القوات من مرفأ لشبونة وتكون الأسطول البحري من ثلاث فرق، وضمت الجيوش البرتغالية كذلك إنجليز وألمان وبولونيين زيادة على فرنسيين، واستولت على المدينة في غشت ١٤١٥، بعد قتال دموي، عرّض هذا الاحتلال اقتصاد المدينة للانهيار بسبب توقف النشاط التجاري مع مملكة فاس كما انهارت شعبية الحاكم أبو سعيد المريني<sup>(٤)</sup>. والمثير هو ما اعتبره المؤلف أنه رغم الأهمية السياسية والاقتصادية للمدينة فإن تبعات ذلك كانت وخيمة حيث فقدت المدينة مصادر غناها وهي في يد البرتغاليين مثلها مثل كل الثغور التي أخذت فيما بعد، بسبب حالة الحرب المستمرة التي عاشها البرتغاليون بالمغرب (ص ٢١-٢٢) كما أنها لم تكن مخزناً تجارياً كما تم الترويج له خلال الإعداد للحملة ولم تكن غنيمة ذات

وأدابهما، مما أهله لعضوية أكاديمية العلوم بلشبونة سنة ١٩١٥. ومن خلالها أشرف على إصدار مجموعة من الدراسات التي تُعنى بالتوسع البرتغالي في مناطق متعددة. كما أنجز مونوغرافية عن تاريخ أصيلا.

أما المترجم الأستاذ عثمان المنصوري فهو أحد الباحثين المتخصصين في موضوع العلاقات المغربية البرتغالية أنجز أعمالاً أكاديمية تناولت العلاقات المغربية البرتغالية منها "التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر"<sup>(١)</sup>، و"العلاقات المغربية البرتغالية ١٧٩٠-١٨٤٤"<sup>(٢)</sup>. إضافة إلى عشرات المقالات والمشاركة في ندوات علمية ذات الصلة بالموضوع فقد وضع نصب أعينه النباش في هذا التاريخ العلائقي في مرحلة حبلى بالمتغيرات الدولية ويشير الباحث المنصوري إلى انصراف نظر الباحثين في التاريخ المعاصر إلى الدول التي أصبح لها بعد القرن التاسع عشر موقع متميز ومؤثر في تاريخ المغرب مثل فرنسا وإنجلترا وإسبانيا، لهذا يدعو إلى البحث أكثر في العلاقة المغربية البرتغالية اعتمادا على الوثائق الموجودة بالمغرب أو بالبرتغال. فهو زاخر بمادة تاريخية غنية ومتنوعة ومختلفة عما يقدمه الأرشيف المغربي، كما أنه ميسر لطالبيه ومنظم، ويمكن الولوج إليه والاستفادة منه واستجلاء قضاياها المختلفة كقضية الأمن وعلاقة موظفي المخزن بقناصل الدول الأوروبية وحركة التجارة بالموانئ المغربية وحتى صدى حملة نابوليون على مصر ووقعها على المغاربة<sup>(٣)</sup>.

يغطي الكتاب مرحلة زمنية تمتد من ١٤١٥ إلى غاية ١٧٧٣ مستندا على رصيد وثائقي برتغالي علاوة على اطلاعه على كتابات عربية من قبيل كتابات البكري والشريف الإدريسي وابن بطوطة (الحديث عن سبتة وكتابات ليفي بروفنسال ثم يُبرز غياب الحديث عن سبتة في كتاب ليون الإفريقي الذي خصص لها بضعة أسطر مقابل تخصيصه لأكثر من ١٠٠ صفحة خلال وصفه لمدينة فاس).

اجتمعت فصول الكتاب على إبراز مراحل الوجود البرتغالي بالمغرب إذ يمكن تقسيم التوسع أو الاستعمار البرتغالي إلى أربعة مراحل تمتد من القرن الخامس عشر الميلادي إلى الثامن عشر الميلادي وهي:

(١) مرحلة الغزو من ١٤١٥م إلى ١٥١٥م.

(٢) مرحلة الحياة غير المستقرة في الأماكن المسيطر عليها، وإبراز تنظيمها العسكري والاقتصادي من ١٥١٥م إلى ١٥٤١م.

مردودية<sup>(٥)</sup>. فسبته بئر كبير يستنزف الأسلحة والمال ورجال السلطة في إنجلترا وفلاندره هذه لم يتحدثوا بعد عن الشرف والشهرة الطيبة التي أحدثها الاستيلاء عليها ولكنهم تحدثوا عن الخطأ الكبير المتمثل في الحفاظ عليها مع ما تسببه من خسائر وأضرار.<sup>(٦)</sup>

يبرز تواصل اللحم البرتغالي في جعل المضيق بحرًا برتغاليًا عن طريق السيطرة على مرافئ مغربية جديدة، لهذا رغب الدون هنريك في الاستلاء على طنجة بغية وضع العراقيل أمام الطموحات القشتالية للسيطرة عليها. بيد أن هذا اللحم كان صعب المنال إنها مغامرة<sup>(٧)</sup>. فاختلقت المواقف من عملية الغزو غير أن الاتجاه المؤيد للتوسع هو الذي انتصر وهكذا انطلق الجيش البرتغالي من سبته نحو طنجة برا بعد رسوه في ميناء سبته قادمًا من البرتغال، لم يتمكن الجيش من دخول المدينة بعد حصارها، فأصبح هو الآخر محاصرًا من طرف الجيوش المغربية<sup>(٨)</sup>، مما اضطره إلى الاستسلام ووقوع الأمير الدون فرناندو في الأسر إلى أن توفي سنة ١٤٤٣م أسيرًا بمدينة فاس. لم يثن فشل هذه المحاولة الملك أفونسو الخامس على الاستمرار في الغارات على السواحل المغربية واستئنافها في سنة ١٤٥٨م على مدينة القصر الصغير بأسطول مكون من ٢٢٠ سفينة حسب المؤرخ pina و ٢٨٠ سفينة وجيش مكون من ٢٥٠٠٠ إلى ٢٦٠٠٠ مقاتل، انتهى القتال الدامي باحتلال المدينة يوم ٢٣ أكتوبر ١٤٥٨م.

إن اهتمام أفونسو الخامس بطنجة دفعه للقيام بعدة محاولات، ما بين ١٤٦٣م و١٤٦٤م باءت كلها بالفشل لكن تأتى له الأمر عند اغتيال آخر الملوك المرينيين، وانتشار الفوضى وعدم الاستقرار بالمغرب، فاحتل أصيلا وطنجة غشت من سنة ١٤٧١م<sup>(٩)</sup> تجذر الإشارة إلى أن احتلال طنجة وأصيلا تزامن من ضعف الدولة المرينية ودخول البلاد مرحلة التشرذم السياسي. سار على منوال هذه السياسة المغربية الدون جواو الثاني خلال فترة حكمه ببناء الحصون، ليس بعيد عن مجرى نهر العرائش، الذي تعرض للهجوم من طرف مولاي الشيخ ملك فاس قبل الانتهاء من الأشغال ليوقع بهم خسائر فادحة.

استمر مانويل الأول خليفة جواو الثاني في سياسة التوسع وتشييد الحصون والاهتمام بالجنود والقادة العسكريين وتحفيزهم ماديًا، وزاد من نفقات الحرب مع المغرب. ومن أهم إنجازاته تكليفه DIOGO DE AZAMBUJA بإنشاء عدة قصور منها قصر الريال CASTELO REAL لموكادور سنة ١٥٠٦م في نفس المكان الذي سيشيد فيه لاحقًا المدينة المسماة

MOGADOR، وأنشأ في سنة ١٥٠٧م قصر AGOUZ في الشمال على مصب نهر تانسيفت، وسنة ١٥٢١م قصر آخر على الضفة الأخرى من النهر وسنة ١٥٠٨م انتهى من بناء قلعة أسفي والاستيلاء على المدينة. اشتهر في هذه الفترة عدد من القادة العسكريين البحريين البرتغاليين كالقبطان إتييد، قبطان أسفي، الذي قدم خدمات كثيرة للبرتغال، وكانت فترة قيادته من أبرز فترات الاحتلال البرتغالي للمغرب تشددا، ولقب بـ "الذي لا يتوقف أبدا"، ببسالته منح البرتغال شهرة كبيرة ومن أهم إنجازاته قيادته لحملة عسكرية في سنة ١٥١٥م ضد مراکش، هاجمها لكن بعد أربع ساعات من القتال الذي أسفر عن عدد كبير من القتلى لكلا الجانبين، تراجع وحافظ على جيشه رغم مطاردة المغاربة له.

خلال سنوات قيادته انضم إليه أحد أعيان المنطقة "بن تعفوفت"، وساهما معا في إخضاع المنطقة التي تضم مساحة شاسعة بها قبائل دكالة، عبدة والشياطمة، لكن بموت إتييد سنة ١٥١٦م وبن تعفوفت سنة ١٥١٨م، فقدت المنطقة أهميتها، خاصة بعد الهجمات التي قام بها حاكم فاس في الشمال والشريف السعدي من الجنوب. ونتيجة لذلك وفي عهد مانويل الأول تنامى الشعور الديني لدى المغاربة تزامنا مع بداية صعود قوة الشرفاء في الجنوب والوطناسيين في الشمال، في المقابل تابع الملك البرتغالي سياسة تشييد وبناء الحصون التي ستكلفه ماديًا وعسكريًا، وكان من أبرز الضربات الموجهة التي تلقاها في سنة ١٥١٥م هي الهجوم الذي تعرضت له قواته من قبل نائب الملك على مكناس، قبل نهاية مشروع بناء حصن على مصب نهر سبو "المعمورة" فرغم إرساله لأسطول مكون من ٢٠٠ سفينة و٨٠٠٠ رجل للقيام بهذه المهمة، إلا أن المواجهة انتهت بشكل كارثي على البرتغاليين نتيجة فقدانهم ١٠٠ سفينة و٤٠٠٠ رجل مما أرغمهم على التوقف عن بناء حصون جديدة.<sup>(١٠)</sup> كانت المأساة مناسبة لتوضيح هشاشة الأوهام الصليبية للدون منويل<sup>(١١)</sup> كما يقول المؤلف.

(٢) الحياة غير المستقرة للمراكز الإفريقية: تنظيمها العسكري والاقتصادي

استمرت المناوشات والهجمات خلال الفترة الممتدة ما بين ١٥١٥م و١٥٤١م، سواء في الشمال أو الجنوب، ولم يعد في الإمكان بناء حصون أو قلاع جديدة، وتقلص عدد المؤيدين والموالين للبرتغاليين، في المقابل تزايد الشعور والواجب الديني لدى المغاربة لمواجهة المسحيين، وقد ساعد البناء الجيد

استمر مانويل الأول خليفة جواو الثاني في سياسة التوسع وتشييد الحصون والاهتمام بالجنود والقادة العسكريين وتحفيزهم ماديًا، وزاد من نفقات الحرب مع المغرب. ومن أهم إنجازاته تكليفه DIOGO DE AZAMBUJA بإنشاء عدة قصور منها قصر الريال CASTELO REAL لموكادور سنة ١٥٠٦م في نفس المكان الذي سيشيد فيه لاحقًا المدينة المسماة

استمر مانويل الأول خليفة جواو الثاني في سياسة التوسع وتشييد الحصون والاهتمام بالجنود والقادة العسكريين وتحفيزهم ماديًا، وزاد من نفقات الحرب مع المغرب. ومن أهم إنجازاته تكليفه DIOGO DE AZAMBUJA بإنشاء عدة قصور منها قصر الريال CASTELO REAL لموكادور سنة ١٥٠٦م في نفس المكان الذي سيشيد فيه لاحقًا المدينة المسماة

استمر مانويل الأول خليفة جواو الثاني في سياسة التوسع وتشييد الحصون والاهتمام بالجنود والقادة العسكريين وتحفيزهم ماديًا، وزاد من نفقات الحرب مع المغرب. ومن أهم إنجازاته تكليفه DIOGO DE AZAMBUJA بإنشاء عدة قصور منها قصر الريال CASTELO REAL لموكادور سنة ١٥٠٦م في نفس المكان الذي سيشيد فيه لاحقًا المدينة المسماة

استمر مانويل الأول خليفة جواو الثاني في سياسة التوسع وتشييد الحصون والاهتمام بالجنود والقادة العسكريين وتحفيزهم ماديًا، وزاد من نفقات الحرب مع المغرب. ومن أهم إنجازاته تكليفه DIOGO DE AZAMBUJA بإنشاء عدة قصور منها قصر الريال CASTELO REAL لموكادور سنة ١٥٠٦م في نفس المكان الذي سيشيد فيه لاحقًا المدينة المسماة

- عُسِر الأوضاع المالية لتجاوز المصاريف الباهظة لعائدات الدولة.
- كُفِّت السيطرة البرتغالية على عوالم متعددة خاصة السواحل وتورطوا في خسائر بشرية ومادية.
- اختلال الاقتصاد والنظام ساهم في خلخلة توازن الميزانية.
- اعتماد البرتغال على عناصر أجنبية وتوظيفهم كمرتزقة لتدارك الضعف الديموغرافي البرتغالي في المغرب.
- لجوء القادة إلى العنف المتكرر لتثبيت السلطة البرتغالية.
- ضعف التنظيم الاقتصادي في الثُغور واستشراء الفساد وارتفاع الجبايات وانتشار المجاعة سنة ١٥٢٧.
- الوضعية السياسية بالمغرب مع تنامي سلطة السعديين تدريجياً ١٥١١ مهاجمة أكادير و١٥٢٥ دخول مراكش و١٥٥٤ دخول فاس.<sup>(١٣)</sup> في كل انتصار جديد للشرفاء كان يدق جرس إعلان الوفاة لوجودنا هناك، لأن التنامي للسلطة، يزيد من ضعف احتمالات صمودنا في الثُغور وقدرتنا على المحافظة عليها.<sup>(١٣)</sup> يقول المؤلف.
- السعي لتصحيح مساوئ السياسة التوسعية المغربية للدون منويل لهذا تم الاهتداء إلى التخلي عن بعض الثُغور إفريقيا لتفادي كل الأضرار التي يمكن أن تلحق بالبرتغال رغم ما جرته فكرة التخلي من سجال بين مؤيد ومعارض وانتظار موافقة الكنيسة فوجهت طلباً للحصول على براءة من البابا تسمح لهم بالتخلي عن أزمو وأسفي والقصر في الشمال.<sup>(١٤)</sup> وهو ما تم بعد الحصار السعدي وتحرير سانتا كروش سنة ١٥٤١. وعليه فقد بدأ إفراغ تم إجلاء سكان الحدود ورجال الأسلحة. أصيلاً والقصر الصغير في سنة ١٥٥٠.
- لم يحتفظ الدون جواو الثالث من إرث والده سوى بسببة وطنجة في الشمال ومازكاو في الجنوب.<sup>(١٥)</sup>

#### (٤) الحياة المظلمة الثُغور الأخيرة في المغرب

خلال الفترة الممتدة ما بين (١٥٥٠-١٧٦٩)، فقدت البرتغال على التوالي مدينتي سبتة وطنجة في الشمال، ومازغاو في الجنوب، لكن أصيلة ظلت تحت السلطة البرتغالية وذلك ما بين (١٥٧٧-١٥٨٩). شهدت هذه الفترة الطويلة أحداثاً كبيرة، كمعركة القصر الكبير سنة ١٥٧٨ وانتفاضات متكررة بالمغرب، كذلك تطاحنات ومنافسة داخل الأسرة الحاكمة على العرش مما أدى إلى خلق توتر وقلق هدد السلم الداخلي. وصل

للحصون في ضمان أمن البرتغاليين داخل أسوارها وأطال في بقائهم، بعض مواد بنائها جيء بها من أوروبا التي كانت رائدة في بناء القلاع خلال هذه الفترة. كما عمل البرتغاليون على إنشاء نظام مراقبة فعال، يعتمد على الأبراج داخل الأسوار للإنذار المبكر في حالة الهجوم المباغت، ومراقبة تحركات المغاربة أغلبها أنشئت على مرتفعات صغيرة من الأرض، وكان الفرسان يشكلون القوة الضاربة خارج الأسوار ويكلف المشاة بالحراسة والدفاع عن المكان بمساعدة سكان المدينة (مغاربة السلم) الذين يقدمون بدورهم بخدمات عسكرية في حالة الحرب والحصار.

اعتمد البرتغاليون في حملاتهم على المغاربة كمرشدين (مغاربة السلم)، أما التنظيم الإداري داخل القلاع كان بالأساس عسكرياً تحت سلطة حاكم أو قبطان معين من الملك وله صلاحية تعيين باقي المناصب داخل منطقة نفوذه، وأهمها قائد الجيش وحاكم القصر، وهناك وكلاء المالية على رأسهم مراقب المالية وهو أعلى منصب بعد القبطان أو الحاكم بمثابة نائب الحاكم، ينوب عنه في غيابه وتجد كذلك منصبين هامين وهما مفتش المالية مكلف بتمويل الأماكن ومراجعة الحسابات والمكلف بجمع الرجال و مواد التموين للأماكن الإفريقية.

بالعودة إلى الأوضاع التي كانت سائدة خلال هذه الفترة خاصة بعد ١٥٠٠م، كانت الحرب تقريبا دائمة رغم توقيع الهدنة من حين إلى آخر بين البرتغاليين والشرفاء في الجنوب من جهة أو بين البرتغاليين وحاكم فاس في الشمال من جهة أخرى، لكنها لم تدم طويلاً لتستأنف الحرب من جديد وأصبحت ظاهرة السطو المشترك وأسر أكبر عدد من الأسرى من أجل اقتنائها منتشرة بشكل بارز، فكل طرف ينظم الكمائن للآخر، فمُلاّت النزائين المغربية رغم اهتمام البرتغاليين بأسرارها. واستمرت الأنشطة التجارية ولو بشكل نسبي، اقتصر على بعض المنتجات الأوروبية، التي تستقبلها الموانئ المسيطر عليها من طرف البرتغاليين، وبعض الأغذية والأقمشة والجلابيب الآتية من بلاد المغرب الإسلامي، ساهم في هذه الأنشطة التجارية كل من البرتغاليين والمغاربة واليهود والقشتاليين والفرنسيين وغيرهم.

#### (٣) الانحطاط والانسحاب من بعض المراكز

من أهم سمات هذه المرحلة: تظافر عوامل داخلية وأخرى خارجية في صعوبات التي واجهتها المواقع البرتغالية واستفحل ذلك مع مرور الزمن.

الصغيرة لم يكن يتجاوز المليون والنصف وكانت تطمح إلى حكم إمبراطورية شاسعة مترامية الأطراف على ثلاث قارات، ولا يشكل فيها المغرب إلا عنصراً واحداً.

- عجز البرتغال في التوغل داخل البلاد اكتفاؤهم بالاستلاء على بعض المراكز الساحلية. عدم قدرتها على فرض نفسها على متغيرات القرن السادس عشر.

- مركزية السرد والتسلسل الكرونولوجي بشكل سلسل يخدم تصور الباحث لموضوعه فيحضر السرد هنا بمعاني ودلالات يكونه ذلك التابع والتسلسل الزمني لعرض حدث الاستعمار فهو بذلك يظلم بوظيفة تنظيمية من شأنها إيجاد العلاقات الرابطة بين مجموعة من الأحداث المختلفة والمتباينة لإعادة تشكيل التجربة الاستعمارية البرتغالية بالمغرب.

- يقر الكاتب في النهاية لقد أن فشل البرتغاليين في المغرب كان حتمياً إذ لا يمكن غزو بلاد شاسعة مثله، قد يكون غزو واحتلال البرازيل وإفريقيا سهلاً لأنها دول بدائية وبدون حضارة ولأن القتال معها سهل. لكن كان ذلك صعباً جداً في الشرق. وفي المغرب يقول واجهنا سكاناً لهم حضارة وثقافة ليست أقل من حضارتنا وثقافتنا وتقاليدهم عريقة.<sup>(١٦)</sup> يتوفر على وحدة سياسية. فهو يعقد مقارنة بين الاستراتيجية البرتغالية بالمغرب وبين سياسة الحماية الفرنسية التي طبقها المقيم العام الفرنسي هوبير ليوطي (١٩١٢-١٩٢٥) حين يقر أن سياسة هذا الأخير كانت أكثر نجاعة في استمالة الأهالي عندما احترم عاداتهم وتقاليدهم ورموزهم الدينية.

- يصف التجربة بالمغامرة المغربية كانت مدمرة للحياة الاقتصادية للوطن.

- وظف المؤلف مصطلحات لا تخلو من شحنة دينية متعصبة مثل الإهانة التي أحدثها المسيحي الشعور الديني الجريح هو الذي يحرك المغاربة وليس الشعور الوطني، كان الاحتلال بمثابة شوكة تستمر مغروسة في جسد الإسلام.<sup>(١٧)</sup>

- تركيزه على الحضور البرتغالي إبراز التاريخ المشترك تاريخ الصراع والاستعمار. إنه تاريخ دموي.

- أدرج المغرب ضمن مخطط توسعي برتغالي شامل، فاعتبر كأنه إتمام لعملية الاسترداد، في مرحلة أولى، كما نظر إليه على أنه ضروري لاستمرار الإمبراطورية البرتغالية، لتحصل منه على المؤونة والقمح والماشية والعبيد.

الشريف محمد إلى الحكم سنة ١٥٧٤، فثار عليه عمه عبد الملك بمساعدة أتراك الجزائر له، فانتصر على ابن أخيه في معركة ١٥٧٦. وبعد عدة أشهر من النضال في جنوب المغرب، لجأ الملك المخلوع وعائلته وبعض أنصاره إلى إسبانيا يطلب مساعدتها لاستعادة عرشه لكنها رفضت ذلك، فتقدم نحو سبتة إلى الملك البرتغالي سيبيستان فقبل مساعدته بحماس شديد، واعتبرها فرصة لا تعوض وذريعة جيدة للتوغل داخل المغرب، بالإضافة إلى إن المغرب آنذاك كان يشكل خطراً على شبه الجزيرة الأيبيرية.

التقى الجمعان في معركة وادي المخازن ٤ غشت ١٥٧٨، فتقاتل الجيشان على ضفاف وادي اللوكوس على مقربة من القصر الكبير، وانتصر المسلمون انتصاراً كبيراً بفضل الدعم التركي لهم. وكان الجيش البرتغالي يتكون من ١٧٠٠٠ من المشاة والفرسان مع ٣٦ مدفعية، وداخل المخيم العسكري كان جيشه يتكون من ٤٠٠٠٠ فارس و ٨٥ أو ٩٠ من المشاة و ٢٦ مدفعية. وفقدت الإمبراطورية البرتغالية في هذه المعركة سيادتها وملكها وجيشها والعديد من رجال الدولة. بالنسبة للمغرب، ازداد المغاربة حماساً واسترجعوا مدينة أصيلة، التابعة للبرتغال منذ ١٥٧٧. فتوالى استرجاع الثغور المحتلة من طرف البرتغاليين إذ تم تراجع سلطة الملك البرتغالي الجديد جواو ١٧ على سبتة، وفي سنة ١٦٦٣ سقطت طنجة في يد الإنجليز، وقدمت كمهر للأميرة كاترين زوجة ملك إنجلترا. وقد واجهت البرتغال مشاكل عديدة في المغرب، كصعوبة الفرار منه وشساعة مساحته مما استعصى عليها السيطرة عليه بشكل تام. ومن جهة أخرى بسالة الجنود المغاربة، ودور الجماعات المسلمة في نشر حس الجهاد ضد العدو، وجعلته من الأمور المقدسة من أجل استرجاع وحدة المغرب.

## ثانياً: ملاحظات عامة

بعد تقديم هذه الخطوط العريضة لأهم محاور الكتاب وجب إبداء الملاحظات التالية:

- يجب وضع التوسع البرتغالي بالمغرب في إطاره شامل لفهم أسباب الفشل التجربة الاستعمارية في المغرب.

- اعتمادهم على النسق القديم للعلاقات المغربية الأوروبية وتعويضه خلال القرن ١٥ و١٦ بنسق آخر مفروض بالإكراه والعنف يخدم مصطلحاتهم.

- تأكل الجهاز البرتغالي ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار قلة عدد البرتغاليين لأن عدد السكان هذه المملكة

## الاحالات المرجعية:

- (١) عثمان المنصوري، **التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر: مساهمة في تاريخ المغرب الاقتصادي**، (الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ٢٠٠١)
- (٢) عثمان المنصوري، **العلاقات المغربية البرتغالية ١٧٩٠-١٨٤٤**، ج٢ (المحمدية، مطبعة فضالة ٢٠٠٥)
- (٣) عثمان المنصوري، **المغرب والبرتغال أبحاث من الأرشيف البرتغالي**، (الرباط، مطابع الرباط نت، ٢٠١٧)
- (٤) تميزت فترة حكم هذا الأخير باندلاع حروب أهلية بينه وبين عمه أبي حسون صاحب مكناسة، منعت من أن يرد المغرب بشكل جدي على البرتغال، رغم التعزيزات التي جاء بها متطوعة مجاهدي سلا وآفا وأزمور، رغم نوايا غرناطة في القيام بهجوم مضاد وواسع النطاق؛ وهو ما أغاض أميرها وجعل لنفسه من جبل طارق عوضا، واندلعت بفاس أول ثورة بلاط كان فيها الهلاك أبي سعيد، إذ لم يغتال هذا السلطان لضعفه أو عجزه ولكن لثأر كان بينه وبين حاجبه. وأفني نسله ولم يبق منه إلا طفل عمره سنة اسمه عبد الحق (١٤٢٠) وهو آخر سلاطين بنو مرين. تاريخ المغرب، ص ٢٢٨.
- (٥) ص ٢٢.
- (٦) ص ٢٧.
- (٧) ص ٢٦.
- (٨) أوقف أبو زكريا البرتغاليين عند المضيق ونجح في حماية طنجة لكن أخلافه كانوا أقل حظاً منه، فخرجت الشاوية ومنطقة أسفي من ظل حكم فاس، وكاننا من قبل تتجاران مع البرتغاليين أو تحاربانهم، وحاول يحيى آخر وزراء بني وطاس الاستحواذ على الحكم لكنه ما لبث أن لقي مصرعه بأمر من عبد الحق الذي اشتد عوده، وفر أحد إخوة الوزير وهو من سيؤسس بعد ذلك باثني عشر سنة لحكم بني وطاس الجديدة عقب سقوط دولة بني مرين. نفسه، ص ٢٢٨.
- (٩) ص ٣٦.
- (١٠) ص ٩٠.
- (١١) ص ٩١.
- (١٢) ص ١٥٠.
- (١٣) ص ١٥١.
- (١٤) ص ١٥٤.
- (١٥) ص ١٦١.
- (١٦) ص ١٧٤.
- (١٧) ص ٥٣.

- لم يبرز الكاتب أن المحرك الأساس لعملية الغزو كان دافعه الأساس اقتصادي والرغبة في ضمان الذهب الذي كان يعبر الصحراء ويصل إلى إفريقيا الشمالية، لكن استراتيجيتهم لم تكن فعالة نتيجة اضطراب تجارة الذهب.
- استمرار المنافسة البرتغالية القشتالية وتأثيرها على التحركات البرتغالية كذلك، خاصة بعد استلاءهم على جزر الكناري وإحداث نقطة ارتكاز عسكرية بسانتا كروز (قرب طرفاية) سنة ١٤٧٥.

## خاتمة

تأسيساً على ما سبق يتضح أن البرتغال لم تستفد من تحولات القرن السادس عشر وتحول الثقل الاقتصادي العالمي إلى عوالم أخرى. كما أن هذا التأليف هو رفض لتفهم البرتغال وفشل مغامرتها الاستعمارية بالمغرب. وفي الآن نفسه هو محاولة لإبراز أمجاد الإمبراطورية البرتغالية وتوسعتها في فترات مهمة من التاريخ. فهو يتنازع هواجس التراجع والأسى على ماضي مشرق والرغبة في إثبات ذاته في الفترة المعاصرة، بيد أن تراجعها كان ضمن حركية كبرى، حين لم تتمكن من ضمان استمرار نفس النهج التوسعي بل اكتفت ببعض المراكز دون غيرها.